

المدرسة الفرنسية في الجزائر ودورها في تكوين النخب

أ. حميطوش يوسف

جامعة الجزائر

ملخص:

لقد أدركت فرنسا بعد إحتلالها للجزائر وتوسعها في المناطق الداخلية على أن الوسيلة العسكرية وحدها لا تكفى للسيطرة على الجزائريين وإخضاعهم لها، خاصة وأنها مارست ضدهم سياسة القمع والتعذيب بدون جدوى، مما جعلها تلجأ إلى التركيز على العامل الثقافي عن طريق تهديم المؤسسات التعليمية الأصلية للمجتمع الجزائري، وإحلال المدرسة الفرنسية محلها، بشكل يخلق نوعا من الرضا والقبول لدى السكان الأهالي، من جهة، وخلق نخبة موالية لفرنسا، من جهة أخرى.

السياق التاريخي لظهور المدرسة الفرنسية في الجزائر

لقد حاولت فرنسا، بعد 1850م، نشر التعليم في أوساط الأهالي، فأقامت ثلاثة أشكال من المدارس في مختلف المناطق التي احتلتها وذلك عن طريق:

- 1 - إنشاء المدارس المتشابهة لتلك المتواجدة بفرنسا.
- 2 - إعادة بعث المدارس التقليدية باللغة العربية، تحت رقابة الجيش الفرنسي.
- 3 - إنشاء مدارس وسيطية، تسمى المدارس العربية الفرنسية، والتي تدرس باللغة العربية والفرنسية، مع إحترام البعد الديني للتعليم⁽¹⁾.

إلا أن هذه السياسة لم تنجح في فرض المدرسة الفرنسية ، لكون المعلمين الأوائل الذين تولوا تدريس وتعليم الأطفال الجزائريين المسلمين كانوا من العسكريين ، ولهذا رفض السكان تدرس أولادهم. بطرق هؤلاء الضباط العسكريون هم في غالبيتهم من عناصر سلالية أرستقراطية ، ومن ثم بنوا مع الأفراد الجزائريين الذين سيطروا عليهم علاقات التفوق ، أي علاقة المنتصر والمنهزم⁽²⁾ . كما أنهم قاموا بإرتكاب مجازر وقمع ضد السكان المحليين أثناء الإحتلال والتوسع ، مما خلق ذعرا وخوفا في مخيالهم وذاكرتهم الجماعية^(*) .

لذا ، وبرغم علاقات القوى التي أنتجتها الوضعية الإستعمارية لصالح الإستعمار الفرنسي إلا أن الجيش الفرنسي لم يتمكن من فرض المدرسة الفرنسية في الجزائر^(**)

ولكن بعد عقد من هذا الرفض وبالتحديد إنطلاقا من 1871م ، تمكنت فرنسا من جعل المجتمع الجزائري يتقبل المدرسة الفرنسية بالترغيب والإقناع وليس بالإجبار والترهيب مما سمح لها بالإننتشار. فكيف تم ذلك؟

لقد قام المستعمر الفرنسي بسن قانون مجلس الأعيان الذي أشار إلى القضاء على مبدأ عدم جواز تقسيم وتجزئة الأراضي العامة ، وأشار إلى تكوين الملكية الفردية التي يمكن التخلي عنها للمعمرين. لذا نشأت في المجتمع الجزائري الملكية الفردية التي

إنجر عنها نزع الصفة الإجتماعية عن العلاقات الإجتماعية الضعيفة القائمة، وإلى إنحلالها. لقد حررت الملكية الفردية للفلاحين الجزائريين من العلاقات الاجتماعية القبلية دون تعويضها بعلاقات أخرى، فلم يعد المجتمع الجزائري ذلك الكل الهرمي، بل أصبح عبارة عن مجموعة من المنضافين لبعضهم البعض⁽³⁾.

لقد استهدف قانون مجلس الأعيان تكوين الملكية الفردية إنشاء الدوائر في مكان القبيلة. وتعتبر هذه العملية عن الإرادة في الانتقال بالمجتمع الجزائري من مرحلة ما قبل الرأسمالية إلى مرحلة الرأسمالية بقيمتها. وأما الهدف الثاني فيتربط عن الأول، إذ بعد خلق الملكية الفردية، وإنفصال الفرد عن القبيلة، إقتضى الأمر إعادة تجميع عدد من الأفراد المتحررين من الروابط التقليدية السابقة في إطار ما يسمى بالدوار، والغرض منه تفتيت القبائل بشكل يسهل عملية بيع وشراء الأراضي، وإقامة المستوطنات وتسهيل حصول الأوروبيين على الأراضي الخصبة⁽⁴⁾.

فهذان الهدفان من شأنهما أن يضعفا من عملية المقاومة ضد الإحتلال الفرنسي.

فالفلاحون الجزائريون الذين يشكلون الفئة الواسعة أصبحوا ضحايا قانون مجلس الأعيان، الذي دمر القبيلة، فأصبحت هذه الفئة الاجتماعية منغلقة على نفسها.

كما نجد قانون فارني (loi de Warnier) في 1873م، الذي يسمى بـ " قانون الكولون"، والذي إستكمل بقانون 1887م، الذي إستخلف قانون مجلس الأعيان الإمبريالي، الذي يستهدف بدوره ذلك تسهيل عملية إنتقال ملكية الأراضي⁽⁵⁾. فكل هذه القوانين حكمت بالموت على القبيلة، وعلى العائلات الأرستقراطية العقارية وسلطتها الكبيرة. وتراجعت مكانتها الإجتماعية ومواردها المالية بفعل تجزئة القبيلة والأراضي، مما جعل المدرسة بمثابة الوسيلة لتحقيق الترقية الإجتماعية من جهة، وللعيش من جهة ثانية.

وتعد هذه الفترة إنتصارا للمعمرين على العسكريين بفعل إنهيار الأمبراطورية في 1870م، وبسقوطها تمكن المعمرون من هندسة وتصور مستقبل الجزائر، في ظل الجمهورية الثالثة، على حساب العسكريين. واستتبع هذا بوضع مجموعة من القوانين العقارية^(***) في الفترة الممتدة من 1873 إلى 1887م.

والإجراء الثاني قانوني، يجعل من القانون المدني أداة التوسيع سلطة المعمرين والإدارة الفرنسية على حساب الجزائريين. ناهيك عن الإجراءات المالية والقضائية كالزيادة في الضرائب وتوقيف القضاء الإسلامي^(****)، والحد من دور الزوايا، ووضع أئمة رسميين يخضعون لرقابتها. كما رفضت فرنسا توظيف المتخرجين من جامع الزيتونة والأزهر، والمدارس العربية، وكذا الأشخاص الذين لا يعرفون الفرنسية⁽⁶⁾.

فكل هذه الإجراءات - وغيرها - إستهدفت أساسا تحطيم البنى الاجتماعية للمجتمع الجزائري. فنتيجة لهذه الإجراءات إنهار النظام التعليمي الجزائري التقليدي. وفي نفس الوقت أدخلت المدرسة الفرنسية كبديل للأولى⁽⁷⁾. و اعتمد عليها كوسيلة لنشر الثقافة الجديدة محل الثقافة التقليدية، من جهة، وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم، من جهة أخرى. كما أوكلت مهمة التدريس والتعليم لمعلمين فرنسيين مدنيين، أي غيرالعسكريين، تلقوا تكوينهم في الجامعات وفي مدارس المعلمين بفرنسا، ينحدرون من عامة الشعب، ولهم نظرة عن السكان المحليين تختلف عن نظرة العسكريين السابقين⁽⁸⁾، فهم يؤيدون تعليم الجزائريين بغرض جعلهم يتقبلون التواجد الإستعماري الفرنسي. كما تولى، لاحقا، بعض المعلمين الجزائريين المسلمين الذين تخرجوا من مدرسة المعلمين ببوزريعة تدريس الأطفال الجزائريين وتعليمهم، مما خلق قابلية لدى السكان، خاصة وأن المدرسة الفرنسية بدأت تحل محل الكتاتب والزوايا والمدارس القرآنية.

إذا، لم يكن في وسع المدرسة الفرنسية فرض نفسها دون تفكيك المجتمع التقليدي الجزائري من جهة، و خلق شروط مقبولة من السكان، من جهة ثانية. وبينما عارض ذلك المعمرون في الجزائر حيث ألحوا على التعليم المهني، عبر إنشاء مدرسة "للأهالي" ذات طابع تعليمي، ذهب الجمهوريون إلى المطالبة بإنشاء

مدرسة حضارية!! ومن ثمّ تغيير الإنسان الجزائري. ولقد تمكن التيار الثاني من تحقيق غرضه بمساعدة سلطة باريس⁽⁹⁾.

وقد انطلقت هذه السياسة التعليمية الفرنسية في نهاية القرن 19م، وارتكزت على التحكم التدريجي في السوق العقاري (أي الممتلكات) من ناحية، وفي فرض الوضعيات والمراتب الاجتماعية والقيم الرمزية، بشكل يسمح لها بوضع اليد على قنوات التدرج الاجتماعي من ناحية ثانية. ولهذا فقد أعطت الأولوية للمدرسة الفرنسية، التي فرضت نفسها، بل أصبحت في أقل من نصف قرن (1880 - 1920م) بمثابة وسيلة للعيش والحياة⁽¹⁰⁾.

كما اعتبرت فرنسا، بعد انتفاضة المقراني في 1871م أن المدرسة تعد الوسيلة الأنجع لخلق سكان مسالمين ومعتدلين، ينبذون العمل الثوري. وأصبح الاهتمام والانشغال بتعليم الطفل من خصائص البورجوازية الجزائرية آنذاك، ليشمل فيما بعد الفئات الأخرى، إذ الحصول على الشهادة من المدرسة الفرنسية يعد بمثابة المفتاح للترقية الاجتماعية في المجتمع بدلا من الحصول على الأرضي، على أساس أن الأراضي الخصبة يسيطر عليها المعمرون.

فإذا كان الكثير من الجزائريين قد تدرعوا في البداية باسم الدين لرفض المدرسة الفرنسية، إضافة إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة للجزائريين^(*****) فإن الفئات الاجتماعية التي كانت تطمح إلى الترقية الاجتماعية لم ترفض المدرسة. فبعد

المرحلة الإنتقالية التي عرفها المجتمع الجزائري المضطرب والمحروم من كل حقوقه الأساسية، ومن حرياته وممتلكاته، ظهرت الحاجة للثقافة التي كانت بمثابة ثقافة الضرورة⁽¹¹⁾. لقد حدث تحولا في ذهنية الجزائريين تجاه المدرسة الفرنسية، و أصبحوا يتقبلونها.

وعليه، فقد ظهرت المدرسة الفرنسية وعرفت إقبالا من قبل السكان الجزائريين المسلمين في ظل تدمير المجتمع الجزائري التقليدي وإنهياره.

نشأة المدرسة الفرنسية وتطورها:

لقد أدرك الساسة والبيداغوجيون الفرنسيون بعد 1871م، أن المدرسة تعد بمثابة سلاحا فعالا للتغلب على الروح التي أدت إلى مختلف الثورات ضد فرنسا، وآخرها ثورة الشيخ المقراني⁽¹²⁾ وبإيعاز من الشيخ الحداد رائد الزاوية الرحمانية بصدوق. ولتجسيد مطلب التيار الجمهوري الذي قاده كل من لوبورجوة (Le Bourgeois)، وم.ستانسلاس (M.Stanislas)، وم.أنري (M.Henri)، قام وزير التعليم الفرنسي جول فيري⁽¹³⁾ (Jules Ferry) بإنشاء هذه المدارس وقد كان التعليم لائتيا من خلال قانون 28 مارس 1882م. والذي أكد على فصل التعليم المدني⁽¹⁴⁾.

كما أصدرت فرنسا ما يسمى بمرسوم فيري الذي جعل التعليم إجباريا ومجانيا للسكان الجزائريين المسلمين.

فالتعليم حسب جول فيري (Jules Ferry) سوف يخلق أناسا فرنسيين، مسالمين ومعتدلين غير متمردين، يتقبلون الثقافة والأفكار الجديدة والوجود الفرنسي.

وقد رفض المعمرون تطبيق التشريع المدرسي الفرنسي لعام 1883م، كما رفضوا إنشاء 5 مدارس لصالح السكان الجزائريين تمولها وزارة التربية الفرنسية في باريس بنسبة ثلاثة أرباع من ميزانيتها. وفي نفس الوقت رفضت مختلف البلديات في الجزائر هذا الإقتراح بحجة التكاليف الباهضة ، خاصة من قبل المعمرين الذين اعتبروا نشر التعليم وتعميمه بمثابة إعطاء فرصة للسكان لاكتساب الوعي الثقافي، ومن ثم المطالبة بالحقوق السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وفي النهاية، المطالبة بالجزائر المستقلة خارج الإطار الفرنسي. كما اعتقد المعمرون أن المدرسة ستكون "المتخلفين" (les Déclassés) و" ثوار المستقبل"، وأطفال المدارس الثائرين المتمردين، الشيء الذي جعلهم يرفضون كل سياسة تعليم. وكان المتمدرسون⁽¹⁵⁾ محل اختقار من ذويهم.

وبالتالي، كان الصراع بين إتجاهين: الأول يعارض نشر المدارس الفرنسية وتعليمها في أوساط الجزائريين المسلمين ، ويقوده المعمرون. والثاني يؤيد نشر المدارس والتعليم بشكل يسمح بتكوين

نخبة من الجزائريين المسلمين الموالين لفرنسا. وقد تمكن هذا الاتجاه من تجسيد فكرته، ومن ترسيخ المرحلة الثالثة من الإستعمار. يقول في هذا الصدد، وزير التعليم في ظل الجمهورية الفرنسية الثالثة آنذاك، ألفريد رامبوا (Alfred Rambo) :

" الاستعمار الأول للجزائر تمّ بالسلاح وانتهى في 1871م بنزع السلاح من منطقة القبائل. والاستعمار الثاني تمثل في قبول السكان للحياة والإدارة والقضاء الفرنسي. والاستعمار الثالث سيتم من خلال المدرسة التي ستضمن هيمنة لغتنا وتبرز دور فرنسا في العالم "

(16)

ومنذ هذه الفترة وعدد المدارس والتلاميذ والطلبة والمعلمين الفرنسيين والجزائريين المسلمين يتزايد، وهوما يؤكد الجدول التالي⁽¹⁷⁾ :

السنوات	عدد المدارس		عدد الألق سام		المعلمون		عدد التلاميذ	
	الذكور	الإناث	المجموع	الفرنسيون	الأهالي	الذكور	الإناث	المجموع
1919	475	19	942	423	426	41376	6746	48140
1920	491	19	979	455	451	37678	3331	41009
1921	489	19	990	485	427	38573	3527	42100
1922	495	19	1018	482	445	42348	4514	46862
1923	494	19	1010	526	445	44438	4529	48898
1924	499	19	1034	565	459	47438	4914	52352
1925	500	19	1046	583	457	48478	5131	53609
1926	512	19	1089	644	432	49856	5487	55363
1927	519	21	1113	639	464	53302	6710	60012

63166	7766	55400	478	637	1153	22	529	1928
60644	6712	53932	468	666	1199	23	541	1929

يلاحظ من هذا الجدول أن هناك إختلافا كبيرا بين عدد التلاميذ الفرنسيين والجزائريين المسلمين، وهذا يعود أساسا إلى الظروف الإقتصادية والإجتماعية الصعبة للجزائريين المسلمين والتي جعلت العائلات الجزائرية تفضل عمل أطفالها في الحقول وفي مختلف الحرف لمساعدتها بدلا من التوجه إلى المدرسة. زيادة على أن هذا الاختلاف مرده إلى أن تواجد المدرسة الفرنسية كان يقتصر عموما في المدن الكبرى وفي منطقة القبائل وتلمسان. وأخيرا، فإن هذا الاختلاف يعود إلى أن الفئات الواسعة من الجماهير الجزائرية لم تدرك بعد أهمية المدرسة في الترقية الاجتماعية، فاقصر الأمر غالبا على أبناء البورجوازية الجزائرية الناشئة. ويعود ارتفاع عدد الذكور على الإناث إلى الطابع المحافظ للمجتمع الجزائري.

ويتضح من هذا الجدول أن هناك تقاربا بين عدد المعلمين الفرنسيين والجزائريين المسلمين، ويفسر هذا بإرادة فرنسا في خلق نخبة وسيطة بينها وبين الجزائريين المسلمين في ميدان التعليم، خاصة وأن ميدان الوظيف العمومي كان مغلقا أمام الأهالي، فلم يكن مفتوحا أمامهم إلا في ميادين الطب والمحاماة والتعليم في المدارس الابتدائية.

و إن قارنا، هذه الإحصائيات ، بمرحلة ما قبل الإستقلال من ناحية، وبالتعليم الفرنسي داخل فرنسا من ناحية أخرى، لوجدنا فرقا شاسعا بينهما. إن التعليم في الجزائر قبل الإحتلال الفرنسي كان مزدهر فقد كتب الجنرال فالري في 1834م، ، قائلا: " كل العرب(الجزائريون) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، حيث توجد مدرستان في كل قرية". كما كتب دوهوبتول، في 1850م، في تقرير إلى نابليون الثالث بأن : " الدراسات الإسلامية كانت في وضع مزدهر نسبيا" عشية الإحتلال. أما الأستاذ إيمري الذي درس طويلا الحياة الجزائرية، فقد أشار إلى أنه في مدينة قسنطينة لوحدها كان يوجد خمسة وثلاثين مسجدا تستعمل كمراكز للتعليم، كما كان هناك سبع مدارس ثانوية يحضرها حوالي تسعمائة طالب... أما المدارس الابتدائية فقد كان هناك تعسون يحضرها 1350 تلميذا⁽¹⁸⁾.

فرغم تظاهر فرنسا وتأكيدها على نشر التعليم الإجباري في الجزائر، وفي البلديات الكاملة الصلاحيات والمختلطة والعسكرية، وعلى أنها حاملة للرسالة الحضارية، إلا أن هذه الجهود لم ترق إلى مستوى طموحات الشعب الجزائري، فلم تشمل كل الجزائريين، إذ لم تتجاوز نسبة 2% في عام 1889م، 8.9% في 1930م و15% مع بداية الثورة التحريرية⁽¹⁹⁾.

برنامج المدرسة الفرنسية:

إن البرنامج التعليمي المقرر في مدارس فرنسا هو نفسه المطبق في مدارس الجزائر. ذلك من خلال القرار الوزاري الصادر في 19 جانفي 1887م⁽²⁰⁾. وقد تركز البرنامج المدرسي الموجه للتلاميذ الجزائريين المسلمين على:

1 - اللغة الفرنسية:

تعد اللغة الفرنسية في الجزائر بمثابة الأساس الذي ترتكز عليه المدرسة ، وإعتبر أن تأثير التعليم على السكان الأهالي يرتبط باللغة الفرنسية التي ستسهل الإتصال وإقامة العلاقات بين الفرنسيين والسكان الجزائريين المسلمين، وتجعل التقارب ممكنا.

فالتعليم المدرسي ركز أولا على تعليم الفرنسية. وفي هذا الصدد يقول ف.بويسون (F.Buisson)، جوان 1887م، في المجلة البيداغوجية: " تعليم السكان الأهالي هو أولا تعليم لغتنا"⁽²¹⁾ ويقول مضيفا : " لما يتكلم الأهالي لغتنا، يصبحون شبه فرنسيين. فالتعليم يجب أن ينتشر في أوساط السكان المسلمين باللغة الفرنسية التي تعد وسيلة للتبادل بيننا ولتوصيل الأفكار"⁽²²⁾. فالتعليم بالفرنسية إعتبر على أنه حامل للأفكار التي تعرف

الحضارة الفرنسية، بشكل تنغرس في عقولهم، وتسيطر عليهم، وتجعلهم يتقبلون فرنسا بطرق سلمية.

وهكذا تعود الطفل الجزائري المسلم على أن اللغة الفرنسية هي اللغة الأم، ولغة العلم والحضارة، وعلى التفكير بها مباشرة . وفي هذا الصدد يرى السيد شيبير (Scheer): أن " الطريقة المباشرة والملائمة تتمثل في إظهار الأشياء والصور دون اللجوء إلى الترجمة. فأطفال الأهالي يجب أن يتعلموا الكلام والتفكير بلغة جديدة لهم دون المرور على اللغة الأم والأصلية" (23) .

وهكذا فإن هذه اللغة سوف تحدث القطيعة وتحمل حضارة أخرى وتحل محل الأولى (لغة الأم). فيقول جول فيري في هذا الشأن: "يكفى أن نتحكم في لطفل الجزائري المسلم حتى سن الرابعة عشر فقط، دون أن نعلمهم كل البرامج التعليمية، وأن نركز فقط على اللغة الفرنسية" (24). ومن خلال اللغة الفرنسية يكتشف الأطفال الجزائريون المسلمون حضارة فرنسا.

وعليه فعلى المعلمين أن يخاطبوا التلاميذ مباشرة، ويعلمهم التكلم والتفكير باللغة الفرنسية.

2 - التاريخ والجغرافيا:

ففي ما يتعلق بالتاريخ ركزت المدرسة الفرنسية على تاريخ الفينيقيين في الجزائر، وعلى إفريقيا الرومانية وما قاموا به من دور في بناء المدن وتشيد الحضارة، فكان العصر الذهبي للجزائر لمدة

خمسة قرون. أما فيما يخص فترة العرب والعثمانيين فقد عرفت الجزائر، في نظر الفرنسيين، الفوضى والتخريب، وهذا يعد بالطبع تشويها للتاريخ. لقد كان هدف البرنامج المدرسي يتمثل في تحقيق القطيعة مع الماضي الحضاري للجزائريين، وإحتقار الذات.

أما الفرنسيون أحفاد الرومان فقد واصلوا عمل أجدادهم الرومان في البناء والتشييد وتبيان محاسن التواجد الفرنسي⁽²⁵⁾.

لقد كان الأطفال يتعلمون تاريخ البلد الأم، فرنسا الجمهورية الديمقراطية، مع تمجيد عظمة فرنسا وإنسانيتها وحضارتها، وكذا الثورة الفرنسية، وإنتصار فالمي على البروسيين، والتعريف بنابوليون وروسو وفولتير. فضلا على القول بأن الأمة الجزائرية غير موجودة في التاريخ، مع عدم التركيز على ماضي الجزائر، بل التركيز على تاريخ فرنسا فقط، وتعليم الأطفال بأن أصول الجزائريين هم الغاليون. فيتم تعليمهم تاريخ آخر غير تاريخهم الحقيقي، بشكل يحدث قطيعة بين جيل من الأطفال الجزائريين المسلمين و أجدادهم وماضيهم⁽²⁶⁾.

أما في مادة الجغرافيا فإن التركيز يتم على أهمية موقع فرنسا الجغرافي، وقوتها في العالم. وفي هذا فالمعلم سانت كالبر (St-Calabre) بمدرسة بقسنطينة، طالب بأن تركّز الدروس على: "عدم إبراز آسيا وأمريكا ولكن أوروبا، وعلى أن أكبر قوة

ليست الصين أو الولايات المتحدة الأمريكية، بل فرنسا، وأن أول مدينة في العالم ليست لندن أو الصين، بل باريس⁽²⁷⁾.

إن هذا كله يستهدف خلق إنسان جزائري جديد يعبر عن ولائه وحبه لفرنسا، ويمجد إنتصاراتها وقوتها وينكر ذاتيته ويحتقرها.

3 - التربية المدنية:

فيما يتعلق بالتربية المدنية، تم التركيز على تعليم شعار الثورة الفرنسية: "الحرية، الأخوة، المساواة"، وعلى تبني قيم الديمقراطية والجمهورية وحب فرنسا والولاء لها، والتركيز على قيم الوطنية، بالقول: "الوطن هو فرنسا كلها"⁽²⁸⁾، وأنه من الواجب التضحية في سبيل هذا الأخير.

فمن خلال ذلك، كانت فرنسا تهدف إلى زرع قيمها الخضرية في عقل الطفل الجزائري المسلم وحب الوطن الفرنسي والذود عليه حتى أن.

الأطفال كانوا يلقنون النشيد الوطني الفرنسي "لمارسيان (La Marseillaise)"⁽²⁹⁾

دور المدرسة الفرنسية في تشكيل نخبة جزائرية:

لقد تمكنت المدرسة الفرنسية من تكوين نخبة من الجزائريين المسلمين الذين عبروا عن ولائهم لفرنسا، وذهبوا إلى حد المطالبة بإندماج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي. يقول الباحث جاك مورال (Jacques Morel): "...كل المستقبل السياسي للنخبة، وكل مواقفها المتخذة مرتبطة إرتباطا وثيقا بالتعليم المتحصل عليه. ويبدو فعلا أن المدرسة الفرنسية من خلال طاقم معلميها كانت تولي أهمية كبيرة لتكوين هؤلاء لكي يصبحوا مواطنين فرنسيين صالحين، وجيدين... ففي كل مراحل الطور التعليمي المدرسي، كانت فرنسا تمثل الشرعية والمشروعية والتحضّر⁽³⁰⁾

ففي بداية القرن الماضي كانت جماعة النخبة، تجمع الجزائريين المسلمين المتخرجين من المدرسة الفرنسية، الذين إعتبروا أنفسهم أنهم وأعون وناضجون سياسيا ، بشكل يمكنهم تمثيل الجزائريين المضطهدين ، أوما يسمون "بعامة الجزائريين" ويعبرون عن مطالبهم. وقد عبر هؤلاء عن إعترافهم لما تلقوه من تعليم في المدرسة الفرنسية⁽³¹⁾. فهم يرون أن الحل الوحيد لإخراج الجزائريين مما يعانونه، من جهل وفقر وقمع، هو الإندماج الكلي في فرنسا بشكل يصبحون مواطنين فرنسيين. وقد عبروا عن أفكارهم من خلال جريدة " صوت الإنديجيني" (La voix de l'indigène) تعبر عن جمعية المعلمين الجزائريين الأهالي ، وبرنامج

النخبة هو تطوير فكر الأهالي نحو الثقافة الفرنسية. ومرجعيتهم هي تقاليد الجمهورية وإرث ثورة 1789م ومبادئها " الحرية المساواة والأخوة ". ولم يترددوا في التمييز بين فرنسا الحقيقية والديموقراطية والواقع الكولونيالي في الجزائر. واعتبر سعيد فاسي، الذي يعد أحد أعمدة النخبة الجزائرية، على أنه من واجب فرنسا تطبيق سياسة الاندماج على السكان الأهالي وجعل الجزائر جزءاً من فرنسا، إن المثقفين الأهالي هم أحسن الفئات الوسيطة بين فرنسا و السكان المسلمين، وقد عبروا عن الطابع الإعتدالي⁽³²⁾.

ونفس الأمر بالنسبة لفرحات عباس، الذي يعد إستمرارية لفئة النخبة التي إحتك بها من خلال فيدرالية المنتخبين. وقد أثرت فيه المدرسة الفرنسية، مما جعله يحمل فيما بعد الأفكار التي تَعَلَّمها في المرحلة الابتدائية، فغرست المدرسة فيه محاسن الحضارة الفرنسية، والتسامح. و أججت فيه مشاعر حب فرنسا والإرتباط بها. كما لقنته المدرسة الفرنسية مجموعة من القيم السياسية الفرنسية كالجمهورية، الديمقراطية، الحرية، العلمانية والتي شكلت في النهاية مبادئه السياسية. يقول فرحات عباس في إفتتاحية جريدة "التفاهم"(l'Entente) الصادرة في 23 فيفري 1936م⁽³³⁾: " إن نخب الأهالي وجدت في الكتابات المدرسية الكلمات المعبرة كالعدالة، والمساواة، والأخوة، وفرنسا، والأمة،

والوطن". وهذا بالطبع قبل أن يغير فرحات عباس أفكاره كلياً فيما بعد.

ونجد أيضاً شهادة أحمد بومنجل، المتخرج من المدرسة الفرنسية التي أثرت فيه، حيث يقول: "كان التعليم الفرنسي يركز على تدريس تاريخ وجغرافيا فرنسا وقليلاً من ذلك المتعلق بالجزائر، فكانوا يعلموننا إنتصارات فرنسا، مما خلق نوعاً من مركب النقص لدينا الجزائريين، وبشكل يجعل الطفل الإندجيني يندم على كونه إندجيني، لإكتشافه الطفل الفرنسي المهيمن، وكذا مجتمع المعمرين المهيمن. ولما أصبح (هذا الإندجيني) معلماً يتمثل هدفه في تجسيد الإندماج بغرض الوصول إلى المجتمع المهيمن" (34).

وخلاصة القول، فقد ظهرت المدرسة الفرنسية في الجزائر في ظروف تميزت بتدمير بنى المجتمع الجزائري بفعل مصادرة الأراضي، والقضاء على القضاء الإسلامي إضعاف التعليم العربي الإسلامي وجعله محل نفور من قبل الجزائريين أنفسهم - وإن كان هذا نسبياً بالطبع -، فقد حلت المدرسة الفرنسية محل التعليم السابق، وأصبحت الوسيلة الوحيدة للترقية الإجتماعية كما استطاعت هذه المدرسة أن تكون، بفضل برنامجها التعليمي الإستعماري، نخبة تؤمن بقيم الحضارة الفرنسية، هذه

النخبة التي ستدخل فيما بعد في صراع مع تلك التي تلقت تكويناً
في الزاوية والمدارس الفرنسية الإسلامية.

الهوامش

1- Colonna Fanny, "Le système d'enseignement de l'Algérie coloniale", Archives européennes de sociologie, tome XIII, n 2, France, 1972, p.199.

2-Leimdorfer François, Discours académique et colonisation: Thèmes de recherches sur l'Algérie pendant la période coloniale, France, Publisud, 1992, p.86.

(*) - على غرار ما قام به كل من الجنرال بيليسي وسانت أرنو و راندو... الخ . فإصطلاح فورورو Vourorou الذي كان يستعمله الجزائريين المضطهدين هو كناية عن مقام به بوجو من قمع وقتل.

(**) - للمزيد أكثر في هذا أنظر :

-Turin Yvone, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: écoles, médecines, religion, 1830-1880 ,Algérie, ENAL, 1983, chapitres 4 et 5, pp..196-301.

(3) - عدي الحواري، الإستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الإقتصادي والإجتماعي 1830-1960، (ترجمة :

عبد الله جوزيف) ط 1، لبنان: دارالحداد للطباعة والنشر والتوزيع، 1983، ص. 67-69.

4-Bourdieu Pierre, Sociologie de l'Algérie, France, P.U.F., 1963, p.63⁶

5-Ageron Charles Robert , Histoire de l'Algérie contemporaine, France, PUF, 1966, p.54.

(***) - وللإشارة، فقد تمت مصادرة أراضي الحبوس شهرين بعد الإحتلال الفرنسي مباشرة من خلال قرار 8 سبتمبر 1830م.

كما صودرت الأملاك العقارية الدينية من خلال قرارات عديدة كقرار 1839م الذي إعتبر أن هناك ثلاثة أنواع من

الملكيّات هي : ملكية (الدومين) وطنية، و ملكية إستعمارية، و ملكية مصادرة. ثم قرار بوجو في 1843م والذي تمت

فيه مصادرة أراضي جامع الكبير، ثم قرار 1848 م الذي أدخل كل المؤسسات الدينية تحت مصلحة أملاك الدولة، مما أثر على التعليم التقليدي

- Sari Djilali, La dépossession des fellahs ,Alger, SNED, 1979, p.29-86.

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1900م، ج2، ط1، بيروت: دار العرب الإسلامي، 1992.ص.249.

(****) - للمزيد حول القضاء الإسلامي وإستبداله بالقضاء الفرنسي، وكمثال في منطقة القبائل أنظر:

- أجرون شارل روبير، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية

الكولونيالية، (ترجمة: ولد خليفة محمد العربي) الجزائر: منشورات ثالة، 2002.

6-Duchet Michéle et Claude, "Un problème politique: la scolarisation de l'Algérie",

Temps Modernes, France, 11^{ème} année, mars-avril 1956., p.1392.

7-Colonna Fanny, "Le Système d'enseignement de l'Algérie coloniale", op.cit., p.201

8- Leimdorfer François, op.cit., p.86.

9- Colonna Fanny, "Le Système d'enseignement de l'Algérie coloniale", op.cit., p.206.

10 - Ibid., p.198.

(*****) - وهو ماتذهب إليه شهادة المحامي الجزائري المشهور أثناء الثورة التحريرية وبعد الإستقلال من أن ظر وف عائلته الإقتصادية والإجتماعية الصعبة جعلت أبوه لم يكثر بتسجيله في المدرسة الفرنسية، فكان مهتما أكثر في أن يساعد في أعمال الحقول.

Henri et autres, La guerre d'Algérie, T.3, France, Temps actuel, 1981, pp.177-179 Alleg -

11-Lacheraf Mustapha, "Réflexions sur le nationalisme en Algérie", Temps Modernes, France, mars 1962, p.1630.

(12) - بوعزيز يحي، السياسة الإستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري -

حركة إنتصار الحريات الديمقراطية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص.165.

13--Mourlan Pierre, Législation et réglementation

de l'enseignement public des indigènes en Algérie: rôle de l'école dans la colonisation, Thèse Doctorat, Université de Poitiers, Faculté de Droit, 1903, p.49

14-Gobron Louis, Législation et jurisprudence de l'enseignement public et de l'enseignement privé en France et en Algérie, Paris, Larose, 1900, p.656.

15-Desvages Hubert, "L'enseignement des musulmans en Algérie sous le rectorat de Jeanmaire: le rôle de l'école", Mouvement Social, France, numéro 70, janvier-mars 1970, p.112.

-
- 16-Collona Fanny, Instituteurs algériens 1883-1939, Alger : O.P.U, 1975 ; p.40.
- (17) - جلال محمد، التعليم في الجزائر 1930 - 1954م، رسالة الماجستير، في التاريخ المعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 2000 - 2001، ص.27.
- (18) - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق الذكر، ص.60 - 61.
- 19-Collona Fanny, Instituteurs algériens 1883-1939,op.cit.,pp..47-48. (
- 20-Eliaou Gaston Guedj , L'enseignement indigène en Algérie au cour de la colonisation 1832-1962, France, Ed des Ecrivains,2000,p.73
- 21-Desvages Hubert,op.cit.,p.117
- 22-Ibid.,p.118.
- 23-Lucette Besserve-Bernollin," adaptation de l'idéalisme des textes aux réalités algériennes " dans Amicale des anciens instituteurs et instructeurs d'algérie et le Cercle d'algérianiste:1830-1962 : Des enseignants d'Algérie se souviennent de ce qu'y fut l'enseignement primaire, France,éditions Privat,1981,p.135.
- 24-Duchet Michèle et Claude,op.cit.,p.1392.
- 25-Lucette Besserve-Bernollin, op.cit.,p.125.
- 26-Ibid.,p.139
- 27-Ibidem.
- 28- Chaulet Achour Christiane, « Langue française et colonialisme en Algérie : de l'abécédaire à la production littéraire », Thèse de Doctorat d'Etat Es- lettres II éme partie, Université de la Sorbonne Nouvelle- Paris III, 1982-, p.411
- 30-Ozouf Jaques et Mona , " Le thème du patriotisme dans les manuels primaires " Revue Mouvement Social,France,numéro 49, octobre-decembre 1964,pp..15.
- 31- Hazan Emile , " Instituteur du Bled " dans Amicale des anciens instituteurs d'Algérie et le Cercle d'algérianiste, 1830-1962 des instructeurs enseignants de l'Algérie se souviennent de ce qu'y fut l'enseignement primaire" op.cit.,p.257.
- 32- Jouin Serge et autres , L'école en Algérie,1830 – 1962, de la Régence aux Centres sociaux éducatifs,France,Publisud,2001,pp..43-44.
- 33-Alleg Henri,op.cit.,p.174.
- 34-Journal Entente , 23-02-1936.